أسامة العيسة:
"المسكوبية"

ناقشت الندوة رواية "المسكوبية- فصول من سيرة العذاب" للكاتب والصحافي الفلسطيني أسامة العيسة، الصادرة أوائل العام 2010، عن منشورات مركز أوغاريت الثقافي في رام الله.

جميل السلحوت:

في هذا الإبداع الجديد لأديبنا أسامة العيسة، المولود والمقيم في مخيم الدهيشة قرب بيت لحم، تصوير لواقع التحقيق والتعذيب الذي يعيشه المعتقلون الفلسطينيون في أقبية المعتقلات الإسرائيلية، وفي المسكوبية كأنموذج لذلك. وقد سرد لنا الكاتب تجربته الشخصية في المسكوبية

obeikandl.com

متطرقًا إلى جوانب من تجارب رفاق آخرين التقاهم في المعتقل. والمسكوبية نسبة إلى (المسكوب)، وهو الاسم الذي يطلقه عامة الناس على الروس، ويعود تاريخ المسكوبية "إلى العام 1857م، بناه الروس كمجمع للمصالح الروسية، يضم نُزلاً للحجاج الذين يجدون فيه كل شيء، من المستشفى إلى الكنيسة وحتى المحكمة والسجن، وجميعها أبنية فخمة ذات هندسة معمارية مميزة، بنيت من الحجارة المحلية" (ص48). وعندما احتل البريطانيون فلسطين في الحرب العالمية الأولى، ووصل الجنرال البريطاني القدس في 9/ 12/ 1917، أعلن بسط الاحتلال على فلسطين من قلعة باب الخليل، وجاء في كلمته: "الآن انتهت الحروب الصليبية" (ص52). وكانت الثورة البلشفية قد قامت في روسيا في السابع من نوفمبر لذلك العام، "ووضع البريطانيون أيديهم على الأملاك الروسية في فلسطين، ومن بينها تلك الدرة المسكوبية، التي تحولت إلى أحد المراكز الأمنية للاحتلال الجديد، وأضحت سجنًا استقبل أفواجًا جديدة من المثقفين والسياسيين ورجال الدين المسيحيين وعلماء الدين المسلمين ورموز الحركة الوطنية." (ص53) ومن بين من اعتقلوا فيها المفكر الفلسطيني الراحل نجاتي صدقي، الذي كتب وصفًا لها في مذكراته، وكذلك الثائران ذائعا الصيت أبو جلدة والعرميط اللذان تم إعدامهما فيها في العام 1932، وعندما رحل الإنجليز عن فلسطين في

15/ 5/ 1948، وأعلن بن جوريون قيام إسرائيل، سلموا المسكوبية كبقية المقرات الأمنية والمعسكرات إلى إسرائيل، التي واصلت استعمال المسكوبية كمركز أمني، ومكان اعتقال وتحقيق.

أديبنا أسامة العيسة، الذي اعتقل في آذار 1982 وهو طالب في المرحلة الثانوية، وتعرض لتحقيق قاس جدًّا، لم يفوت هذه المرحلة التي اختمرت في عقله، ولا يمكن أن تمحى من ذاكرته، كونها ارتسمت عذابات جسدية ونفسية عليه، ارتأى أن يصدرها في عمل روائي، ويبدو أنه اختزنها على أمل تدوينها ونشرها بعد انتهاء المرحلة، لكن الاحتلال الذي طال أمده إلى ثلاثة وأربعين عامًا ولا يزال، قد حرض بممارساته القمعية واستمراره في اعتقال آلاف الفلسطينيين ذاكرة أديبنا كي تبوح بذكرياته الأليمة عن الاعتقال.

وأديبنا أسامة العيسة في عمله هذا يقدم لنا روايته عن الأسر بأسلوب روائي، استخدم فيه أسلوب الاسترجاع flash back بلغة أدبية، على الرغم من أن الموضوع لا يحتمل البلاغة، لكن مرور الزمن ما بين الاعتقال والتدوين، وصقل تجربة الكاتب بدخوله معترك الحياة أدبيًا ومثقفًا وسياسيًّا واجتماعيًّا وحياتيًّا، أملت عليه أن يبدع عملاً روائيًّا رائعًا على الرغم من مرارة مذاق المضمون. ولم يخلُ من السرد الذي جاء أحيانًا على شكل أخبار أو تحقيقات صحافية، وهذا لا ينتقص شيئًا من مقام

وهيبة البناء الروائي الذي جاء متناسقًا ومشوقًا، على الرغم من ما يحتويه من عذابات أشخاص، هي في الواقع عذابات شعب. هذا العمل الإبداعي يمكن أن ندرجه ضمن الروايات التسجيلية، ففيه تأريخ، وفيه شهادات حية لأشخاص منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

واللافت أن أديبنا لم يسرد أحداثًا ووقائع جامدة فقط، بل تطرق إلى نفسية المعتقل وصراعاته الداخلية في مختلف المراحل والتجارب التي يمر بها كصاحب حق وصاحب قضية: "لا يوجد خلاص لك من زنزانتك إلا أن تكون نفسك، صاحب قضية، تريد أن تنتصر على محقق يجب أن تراه مجرد خادم يدافع عن قضية خاسرة" (ص41). وشاء قدر الكاتب أن يعتقل في المسكوبية التي "تميزت بأنها الأسوأ في انتهاك حقوق الأسرى الفلسطينيين، وما لبثت أن حازت على صفة "المسلخ" التي أطلقها عليها الأسرى" (ص57)، فهل كانت المسكوبية مسلخًا حقًّا؟ نعم، إنها كذلك، ففيها استشهد قاسم أبو عكر تحت التعذيب بتاريخ 23/ 3/ 1969، وفيها استشهد أمون النوري في نيسان 1982، وفيها استشهد آخرون، وفيها أعدم الإنجليز العرميط وأبو جلدة في العام 1932.

وفي الرواية حديث عن أساليب التعذيب الجسدي مثل الضرب المبرح على كافة أعضاء الجسم، بما فيها الأعضاء التناسلية، والشبح لأيام،

وتقييد الأيدي، وترك المعتقل يتبول في ثيابه دون السماح له بقضاء حاجاته الإنسانية، وما يصاحب ذلك من عذابات نفسية، وترك المعتقل في زنازين ضيقة ومعتمة لا يعرف ليله من نهاره، وإضاءتها بمصابيح صفراء خافتة لتدميره نفسيا، ووضع المعتقلين أمنيًّا مع المعتقلين الجنائيين.

وفي الرواية حديث عن جريمة اليهودي الأسترالي غولدمان، الذي أطلق النار على المصلين في باحات المسجد الأقصى في نيسان 1982، ما أدى إلى استشهاد ثلاثة وإصابة العشرات بجراح، واعتقال المئات، الذين اقتيدوا إلى المسكوبية للتحقيق والاعتقال، وهنا يظهر مدى استعداد الفلسطينيين لافتداء الأقصى، بمَن فيهم السجناء الجنائيون.

قارئ الرواية، ممن كانت له تجربة الاعتقال خصوصًا في المسكوبية، سيعيش واقع الاعتقال من جديد، وسيجد أن الكاتب لم يبالغ في شيء، ولم يتخيل شيئًا، بل كتب واقعًا عاشه، وكتبه بلغة أدبية رشيقة، وبعاطفة صادقة، فتحية للكاتب ودعواتنا للأسرى بالحرية.

موسى أبو دويح:

ما أظنّ أنّ شعبًا من شعوب الأرض لديه عدد من المعتقلين السياسيّين يقارب عدد المعتقلين السياسيين الفلسطينيّين- على قلة عدد سكان فلسطين في الضفة الغربيّة وقطاع غزّة-، حيث بلغ عدد المعتقلين

عشرات الآلاف. وتعتقل منهم سلطات الاحتلال الصهيونيّ لفلسطين يوميًّا بالعشرات بل بالمئات أحيانًا. وما أظن أن أدب السجون ظهر في أيّ دولة ظهوره عند الفلسطينيّين، ولا كتب عنه كما كتب الفلسطينيّون عن سجونهم المتعددة لدى سلطات الاحتلال الصّهيونيّ، والمنتشرة في كلّ مكان من أرض فلسطين. وما أظنّ أنّ معتقلي أيّ بلد في العالم حصلوا على درجات جامعيّة وهم قابعون في السّجون، كما حصل المعتقلون الفلسطينيون في سجونهم، ذلك لأنّهم أصحاب حقّ، ولأنّ مُدَدَ سَجنهم تعدّ بعشرات السنين، وفي بعض الأحيان بالمئات، ولأنّ المعتقل يحكم عليه بعدد من المؤبّدات وهذا ما يدعوهم إلى المطالعة والكتابة والتأليف.

وسلطات الاحتلال هذه لا تفرّق في اعتقالها بين رجل وامرأة، وبين شيخ فانٍ وطفلٍ رضيع. اسمع للكاتب يقول في روايته (ص95): "اعترف إيتان بن موشيه بن إنيان بأنّه عندما كان في عصابة الإتسل، شارك في تنفيذ مذبحة دير ياسين (العام 1948) بإصدار الأوامر لأفراد عصابته بقتل المدنيّين، وعندما شاهد أطفالاً أصيبوا، قال لأفراد عصابته: اقضوا عليهم، وإلا فالويل لنا إن كبروا ورَوَوْا ما شاهدوه." واعترف في الصّفحة التي قبلها بأنّه أمر بهدم بيوت حارة المغاربة على من فيها من رجال ونساء وأطفال، واعترف أنّه قتل عددًا من الفلسطينيّين من سكان حارة المغاربة، وأنّهم دفنوا تحت الأنقاض، وكشف أنّه أعطى السكان

ربع ساعة فقط ليغادروا منازلهم. فهل تحدث مثل هذه الجرائم أو قريب منها في بقعة بين بقاع العالم؟ إنّ يهود يريدون فلسطين أرضًا دون شعب، وكلّ ما يحقق لهم ذلك مباح، بل واجب عليهم فعله، حتّى يثبتوا للعالم أنّهم وحدهم شعب الله المختار، وأنّ العالم سواهم لا يستحقّ الحياة. هذه هي عقيدتهم، وهذا هو ما يعملون لتحقيقه.

لقد عانى الكاتب من ويلات الاعتقال، حيث اعتقل وهو طالب في المرحلة الثانويّة، أو قل وهو طفل في مرحلة الشباب، وقاسى من أصناف العذاب ما سطره في روايته "المسكوبيّة"، والتي يقول عنها في خطبة الكتاب (ص15): "لم أفعل في هذا النّص الّذي وصلني من كاتبه المجهول، الّذي لا أعرف لماذا اختارني، لتحريره، غيرَ التأكد من المعلومات التوثيقيّة، وزيارة الأماكن الواردة في النّصّ..." حتّى يقول أخيرًا في (ص16): "وفي النّهاية، هذا هو النّصّ، بعد أن لعبت فيه أصابعي". فالكاتب يصرح في (ص15) أنّ الرواية (المسكوبيّة) هي لكاتب مجهول، عهد إليه بنشرها، وجعل ذلك أمانة في عنقه. وقال: وشطبت بعض المعلومات والأسماء، لظنّي أنّ الوقت لم يحن للكشف عن معلومات قد تبدو أمنية، وتشكّل خطورة على أصحابها، وسمحت لنفسي بتمويه بعض الأسماء الحقيقيّة التي ترد في النّصّ، لأسباب مختلفة، وليعذرني صاحبه، الذي لم أجد طريقة للتواصل معه، بعد أن أودع

صفحات مخطوطته في رقبتي، بصمت ودون سابق معرفة، وغادر دون أيّة التفاتة لي، أو للخلف، وكأنه يريد أن يتخلّص من ماضٍ يؤرّقه".

ولقد دققتُ في أسلوب خطبة الكتاب البالغة ثماني صفحات، وهي بقلم الأديب أسامة العيسة، وفي أسلوب بقيّة مواضيع الرواية الستة: 1. (غرفة رقم 12) 2. (دويلة المسكوب في القدس) 3. (ثلوج آذار) 4. (أبو العلم وآخرون) 5. (زميلي الإرهابيّ) 6. (مطر القدس)، فلم أجد فرقًا بين الأسلوبين، بل أكاد أجزم أنّ الأسلوب فيها جميعًا واحد.

تناول الكاتب في روايته أماكن من القدس بتفصيل دقيق، حيث وصف منطقة باب العمود والمصرارة وشارع صلاح الدين وسور القدس، والطريق الذي يصل بين ما يسمونه القدس الغربية بالقدس الشرقية من شارع يافا إلى باب العمود، وأسهب كثيرًا في الحديث عن باب العمود، وذكر أسماءه الكثيرة مثل باب دمشق وباب نابلس، وتاريخه وما فيه، وما حوله من فلاحات يبعن الخضار والفاكهة التي يأتين بها من قراهن القريبة من القدس، ومن تدافع العمال العرب في المصرارة على سيارات أرباب العمل من يهود، الذين يأتون المكان من أجل الحصول على عمال أو مهنيين فنيين، يقومون لهم بترميم بيوتهم، أو بأيّ عمل يلزمهم.

الرواية التي بين أيدينا تناولت الزمان والمكان والشخوص، حيث أجاد الكاتب في وصف الأمكنة وشخوص روايته على اختلافهم من شرطة ومحققين ورجال مخابرات يهود، ومن مناضلين معتقلين من العرب؛ مسلمين كأبي العلم، ونصارى كأنطون (أبو محمد) وأمّون النوري.

وتناولت فترة الانتفاضة منذ بدايتها، حيث استفاد الكاتب من الأخبار التي كانت تنشرها الصحف المحلية عما يجري في كل مدينة أو بلدة أو قرية أو شارع من مدن وبلدات وقرى فلسطين، في ضفتها الغربية وقطاعها الغزيّ.

لغة الكاتب لغة فصيحة سليمة، تكاد تخلو من أي خطأ مهما كان نوعه. وأسلوبه جميل سلس، ينتقل من حدث إلى حدث دونما مقدمات، وهذا من شأنه أن يدفع السأم والملل عن القارئ فهو في (ص37) يحدثنا عن خلافه الفكري مع أنطون، لأنه اتهم أمامه أحد رجال الصف الأول بالمحاباة، ثم عن سفر أنطون إلى الخارج للدراسة والعمل هناك مع المقاومة في عاصمة عالمية، ورؤيته له بعد ذلك في شارع صلاح الدين في القدس في سيارة عابرة لم تتوقف، ملوحًا له بيده، أثناء عودته في إجازة صيفية، ثم عودة أنطون لإكمال دراسته في الخارج، وهناك يقضي نحبه في حادث سير مروع، ويعود إلى القدس جثة هامدة، ويدفن في ثرى القدس

بهدوء. ثم يقول: كان الشرطي الذي يقف خلف الكاونتر في مكتب الأحوال كثير التبرم، ثم أخرج ما يخصني من أغراض كالحزام ورباط الحذاء وبعض القطع النقدية، فأخذتها وخرجت من سجن المسكوبية. يقول الكاتب كل هذا في صفحة أو اقل، فهو يمزج بين الأحداث ويخلطها بطريقة رائعة تشد القارئ لمتابعة الرواية حتى أخرها.

محمد موسى سويلم:

في روايته "المسكوبية.. فصول من سيرة العذاب"، استعرض الأديب أسامة العيسة شيئًا مما عانى ويعاني المعتقلون الفلسطينيون في أقبية المعتقلات الإسرائيلية، على أيدي ثلة من المجرمين والزنادقة الغاصبين لحرية الأرض والإنسان، البانين وطنًا على إرث الكرامة والعزة والكبرياء، وعلى صمود الأبطال الرافضين للهوان والمذلة والساعين لنيل الحرية.

"يطول الشبح ويصبح غير الممكن ممكنًا، فالمشبوح الذي يمسك نفسه عن التبول يأخذ في نهاية الأمر عند اشتداد آلام المثانة قرارًا لا إراديًّا بإراحتها، ومثل كل الأمور تكون الصعوبة في البدايات" (ص69). نعم الصعوبة في البدايات، فالنصر صبر ساعة كما يُقال، وأمّا ما يقوله علماء النفس، وهذا ما أثبته العلم أيضًا، فإن الإنسان حين يضرب تكون

الضربة الأولى مؤلمة جدًّا، ثم تخف حدة الألم إلى أن يفقد الإنسان في نهاية المطاف أحاسيسه، أو يفقد وعيه، أو يصبح الضرب وسيلة غير مجدية، ولا تؤتي أيّ فائدة منه.

المحقق "كان يتعامل مع المعتقلين باستهانة، ويشعر بأن لديه القدرة على هزيمة أيّ منهم، وعلى انتزاع الاعترافات خلال فترة وجيزة، وكان يشجعه على ذلك عدم عناية فصائل المقاومة بأعداد أعضائها لتجربة التحقيق" (ص72). ومتى كان التحقيق علمًا يدرس؟ ولكن مع مرور الزم، وتعاقب الاعتقالات، وكثرة الذين كتبوا عن تجاربهم في المعتقلات، أصبح الكثير يعرفون خبايا وأساليب كثيرة، على الأقل نظريًّا وإن شاء الله لن يجربه أحد.

"استحالة دماء الشهداء إلى ماء بين أيدي السياسيين" (ص75). يتساءل الكاتب من لهؤلاء؟ وماذا سيكتب التاريخ عنهم؟ وأنا أضم صوتي إلى صوته، وأسأل: من لهؤلاء؟ وهل سيصبحون أثرًا بعد عين؟ وهل عظمتهم.. قوتهم.. حبهم لوطنهم.. علاقاتهم.. تضحياتهم.. كل ذلك سيكتب قصصًا للأجيال القادمة؟ وهل ستحفظ هذه الكتب على رفوف المكتبات، أم أن إنجازاتهم وصبرهم سيكون شيئًا من الماضي؟ وشكرًا لهم أم ماذا؟ كيف سنوفيهم حقهم المقدس؟ وكيف ستكتب أسماؤهم بأحرف من نور وذهب في وجدان وعقول كل أبناء المجتمع؟

عن ماذا تحدث الكاتب؟

- تحدث عن شهادات حية في التعذيب.
- نقل شهادة حيّة عن تدمير حارة الشرف، وباب المغاربة، ومسجد البراق.
- عن فروق الزمن في السجن وخارجه.
- تحدث عن مرحلة تاريخية في القدس هي حرب 1967، وعن دار البلدية وإدارتها للوضع والاتصالات، وما آلت إليه الحرب، وعن دفن الموتى، وعن لقاء أبي عوض بقائده في عمان، واعتراف القائد بالخطأ، وأن الحرب لا تدار هكذا، وهذه شهادة لها مدلولاتها حسب رأي أبي عوض والقائد.
- روى عن النزوح الثاني 1967، وكيف أن البعض رفض النزوح، وآثر البقاء، والبعض زج بنفسه في نزوح آخر، ولم يتعلم من التجربة الأولى.
- تحدث عن الإرث التاريخي لباب العامود، أو باب دمشق، وأورد روايات حول التسمية وضياع العامود الأصلي، وعن الصراع بين الفلاحات الصابرات وشرطة ما يسمى بلدية القدس، ومصادرة البضاعة منهن.

obeikandi.com

- روى بمنتهى الروعة عن العلاقة الاجتماعية التي كانت سائدة في ذاك الزمن الجميل بين بائع الجرائد الذي اعتبره عامودًا دائمًا لباب العمود، ثم عرج إلى الشاعر توفيق زياد، وإلى القاص زكي العيلة، وعن الصراع الدائر بين الثقافات من الشيوعية... إلى الإسلامية.
- روى عن أحداث اقتحام الحاقدين للمسجد الأقصى في العام 1982 وإطلاق النار، وسقوط اليماني وبدر شهداء، وإصابة العشرات، ونسبت الحادثة إلى شخص معتوه، وما أكثر معاتيههم!

وكان مسك الختام حديثه عن المحبة بين أفراد الشعب في الفصل الأخير (مطر القدس)، وكيف أنه نام على سطح كنيسة القيامة، والصداقة التي جمعته مع الكثيرين من أبناء هذا الشعب بكل فئاته، وطوائفه ومعتقداته. نعم روى التاريخ بكل شفافية وصدق؛ روى عن ذاك الزمن الجميل، وروى عن ألم وعذابات المناضلين وصبرهم على الهوان، وروى عن الأماكن التاريخية وكيف تحولت من أماكن وآثار تاريخية إلى أماكن لتدمير وتحطيم الكرامة والعزة، من مكان يجب أن يذكر بخير إلى مكان يذكّرنا بالآلام والأحزان والكره.

جرى بعد ذلك نقاش مطول، وكانت هناك مداخلتان مطولتان قدمها إبراهيم جوهر ومحمد خليل عليان.

(القدس 22/ 4/ 2010)